من تراب الطريق (٣٦٨) الأزمة وصناعة التفوق !(*)

تعقيبا على مقال : «ما شأن معالى الوزيرة» ـ جاءنى خطاب بالإيميل من الأستاذ السيد الجوهرى رئيس مجلس إدارة شركة الدلتا للتأمين يقول فيه .. تحية طيبة وبعد ،،، أتابع عمودك اليومى (من تراب الطريق) بجريدة المال وأثار انتباهى وأثلج صدرى عمود اليوم بعنوان : (ما شأن معالى الوزيرة) .

«أنا معك قلبًا وقالبًا كل عمل محترم مادام فى حدود الشرف سواء أكان فنيًا أو فكريًا أو يدويًا بل والعمل عبادة».

«إن الخدمة فى البيوت حرفة شريفة لها أصولها ولقد رأيت ذلك فى مدينة لندن منذ الخمسينيات والستينيات وإلى يومنا هذا .. كثير من خدم البيوت من نساء دول أوروبا الشرقية بلا استثناء بل ومن دول أوروبا الغربية مثل أسبانيا والبرتغال ـ كلهن ذوو خبرة فى العمل الذى له أصوله وفنه ـ ويعملن فى انجلترا بأجر الساعة ولم أسمع عن أى مهانة أو مذلة لحقت بهذه الدول من أوروبا الشرقية أو الغربية نتيجة لعمل نسائهن هذا».

«سمِّها ما شئت ، خدمة بيوت ، إدارة بيوت أو رعاية بيوت وكلها على درجة عالية من الإتقان والأمانة ، متى سنتخلص من مركبات النقص فى

(*) المال/ ٧/ ١٢/ ٢٠٠٩

مجتمعنا الطبقى ونحترم آدمية الإنسان حين يعمل بل ونشجعه بالتدريب والتعليم ورفع الكفاءة حتى يكون مواطنا صالحا ومنتجا وليس عالة على برامج الدعم المرهقة».

«مع وافر تقديرى وأرجو الله أن يوفقك دائما لسديد الرأى وحكيم البيان».

***

ومن الغريب أن تسبقنا الحضارة الغربية إلى ما كنا أصحاب السبق فى إعلاء قيمه .. فالعمل فى ذاته قيمة ، وهو لغة الحياة ورباط الأحياء .. والآدمى معلق مصيره بعمله ، ماذا عمل وماذا قدم ! يتحقق ناتج هذا العمل بمهارة الأيدى وضربات السواعد وحبات العرق ، مثلما يتحقق بناتج القرائح والعقول .. كان رسول القرآن عليه السلام إماما للعاملين ، ومثالًا لاحترام قيمة العمل وشرفه .. لازَمَه وصاحَبَه من طفولته وصباه إلى شبابه وكهولته وشيخوخته ، ولم تثنه عنه مهام الدعوة .. رعى الغنم ، وباشر التجارة لحساب غيره فى أمانة ظلت مضرب الأمثال .. كان يخصف نعله بيده ، وشارك المسلمين فى حفر الخندق بيديه حتى تعفر وجهه الكريم بالتراب ، ويأبى إلاّ أن يشارك فى إعداد الطعام ويقوم بجمع الحطب .. ويقول لأصحابه ! «أعلم أنكم تكفوننى ، ولكن الله تعالى يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال» . .. هذا العمل لا يعيبه أن يكون عملا يدويا ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق أو تأهل له ، وفى الحديث الشريف : «من أمسى كالًا من عمل يده أمسى مغفورا له» . .. وأيضا :

«ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» .

على أنى أردت بالمقال أيضا بيان أن تقلص إفراز الأفذاذ والكفاءات المصرية التى عمرت بهم حياتنا حتى عهد قريب ـ ليس مهمة وزارة القوى العاملة ، وأن إعداد العقول ونشر التعليم والثقافة ، وصناعة التفوق ـ كلها مهام تجاوز اختصاص بل وربما قدرة وتأهيل وزيرة القوى العاملة ، ولها وزاراتها وهيئاتها وأجهزتها المختصة بين التعليم والتعليم العالى والثقافة والإعلام .. فى نحو (٧٠) صفحة من كتاب «الهجرة إلى الوطن» ـ تناولت قضية التعليم فى مصر ، وهى قضية تراخى ترتيبها وباتت تعانى كثيرًا من الأسقام ، مع أنها يجب أن تتصدر جدول الأولويات .. فالعلم أولًا وآخرًا ، والتعليم أولًا والتعليم أخيرًا .. هذان المبدآن يجب أن يكونا قرة عين الدولة كلها إعلاءً وتطبيقا .. بينما تتوارى الآن أى استراتيجية ثابتة للتعليم إزاء تغييرات الوزراء وعدم الالتزام بهذه الاستراتيجية التى لا يجوز أن تتغير وتتبدل كل يوم ، ويجب أن تتبلور فيها القواعد العليا للتعليم والموازنات الواجبة بين قطاعاته المتنوعة ، وعناصر العملية التعليمية ما بين البرامج ، والمعلم ، ودور التعليم ، مع وجوب الالتزام بروح وصناعة التفوق ـ هذه الروح يبدأ غرسها فى الأسرة ، ويتم تخصيبها ورعايتها فى مراحل التعليم .. وهذه الخاصية ـ روح التفوق ـ خاصية مانحة ذات أثر ممتد .. تلازم الإنسان فى حياته العملية طالما انزرعت فيه خلال مراحل التعليم ولاقاها المجتمع

بمدد ثقافى وقاعدة معرفية ثقافية حية ومتاحة عبر قنوات التوصيل فى الثقافة والإعلام وفى غيرهما من منظمات المجتمع المدنى .

لا شك قد عانت العملية التعليمية ، فضلا عن التبديلات فى الاستراتيجية ، وتواضع مستوى الإدارة ، وتراجع مستوى ودور المعلم ، وتدهور المبانى والدور التعليمية ـ عانت فضلا عن ذلك كله من تغير جدول القيم بعامة ، وفى خريطة القيم الاجتماعية بخاصة ، ومن ورائها قيم الأفراد ، واختلاف توزيع الدخل بما صاحبه من اتساع الفجوة بين الأغنياء وباقى المجتمع ، ثم ما أدى إليه تضخم أعداد خريجى التعليم العالى ـ بلا تعليم حقيقى ! ـ من هبوط مرتبات الوظائف المكتبية ، وارتفاع معدلات أجور المهارات الحرفية والخدمات اليدوية .

فى روح التفوق وصناعته ، يتجمع تقدم التعليم ومعه الأمم .. هذه الروح ومعها صناعة التفوق التى تهيئ أسبابه وعناصره وتوفر فرصه وإمكانياته ـ هما اللتان تنقلان العملية التعليمية من الأداء العادى أو الباهت أو الفاتر أو المتواضع ، إلى أداء حى متفاعل مشبوب بالرغبة والحماس والعزم والإصرار على اتخاذ التعليم سبيلا لارتقاء حقيقى فى العقل والمعرفة .. عينه على الذات وعلى الوطن جميعا ، واضعا فى الاعتبار أن كليهما يصب فى الآخر ، وأن الأمم كالأفراد ـ لا تتقدم إلاّ بهذا المزيج من العزم والإصرار الذى تتلاقى فيه الصناعة مع الروح والانتماء للدفع الدائم إلى الأمام !

روح التفوق يجب أن تتلاقى مع صناعة فاعلة رشيدة للتفوق ، فالتفوق صار صناعة تستلزم الخبرة والدراية ، والتنظيم والكفاءة ، وتتواصل مع روح التفوق ليحققا معا غاية التفوق المنشود .

أردت أن أنبه إلى أن أسباب الحسرة على تراجع إنتاج الخامة البشرية فى مصر ـ لا تزال قائمة ، وأن هناك أسبابا عديدة مردودة إلى هيئات كثيرة وإلى المجتمع بأسره ، وراء نضوب إخراج قامات مثل القامات التى زينت حياتنا العلمية والأدبية والثقافية والاقتصادية والفنية إلى وقت قريب . القضية أوسع من أن نحصرها فى السيدة وزيرة القوى العاملة !!

*****